عوامل النمو البلاغي

د٠حسن أمين مخيمر
مدرس بكلية اللغة العربية بدمنهور

من المعروف أن البلاغة نشأت فى روضة الأدب العربى منذ أن نطق اللسان باللغة العربية ، لكنها نمت من خلال الدراسات القرآنية واللغوية والأدبية والنقدية أبان النهضة العربية التى فجرها الاسلام فى أمة العرب ، ثم تزعزعت أصولها مما أثير فى علم التفسير وعلوم القرآن من دراسات كانت خدمة للقرآن ودفاعا عنه ، وطلبا للوقوف على اعجازه وادراك أسراره واكتشاف مكنوناته ٠

وقد ولدت البلاغة مسائل منثورة ولمحات متفرقة بين مسائل العلوم الأخرى ، ولم تظهر وليدا مكتمل الخلق ، واضح المعالم ، بين القسمات الا بعد فترة من ظهور الاسلام(١) ٠

واذا قلنا البلاغة فاننا نقصد البلاغة بمفهومها النظرى ، وهو تناول المسائل البلاغية بالدراسة والتدوين والتأليف والبحث وتحديد المصطلح والقواعد والأقسام ٠ أما البلاغة بمفهومها التطبيقى وهو يعنى استعمال الأساليب البلاغية كوسيلة من وسائل الاصابة فى القول والجودة فى التعبير والبراعة فى الكلام فان ذلك له جذور تمتد فى عمق اللغة العربية ، وترجع الى ما كان يجرى بين العرب منذ أقدم العصور فى مناظرات الشعراء ، وخطب الخطباء ، وفى أحاديث السمر ، وفيما كان يتخلل أسواقهم وأنديتهم من حوار ، يساعدهم على ذلك ذوق أدبى سليم ، وسليقة لغوية طبعة ، واستعداد فطرى للبراعة فى استخدام

---

(١) العمدة لابن رشيد ٦٣/١ ٠

اللغة ، وتصرفات التراكيب ، وابداع المعانى بجانب ذلك بيئة صالحة للنمو الأدبى بما كان يجرى فيها من أحداث تسرى أخبارها على أطراف اللسان أدبا وتصويرا وشعرا ونثرا .

وقد أودع الله فى روح العربى سرا عجيبا يحس به جمال الكلام ، ويفهم به سر البلاغة ، ويتذوق به طعوم الأدب »(٢) ويكون ما يقوله فى جميع شئونه مردودا وانعكاسا لهذه القدرات الكامنة فيه .

ولهذا نقول : كان ظهور البلاغة فنا تطبيقيا أسبق من ظهورها فكرا نظريا وعلما له قواعد وتفريعات .

ويكفى أن تتصفح الأدب الجاهلى لترى كثيرا من أساليب البلاغة على جيده كأنه الحلى على صدور الحسان — وذلك قبل أن تظهر المصطلحات البلاغية بقرون .

اقرأ قول امرىء القيس فى وصف الليل :

وليل كموج البحر أرخى سدوله
على بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه
وأردف أعجازا ونآء بكلكل

لاحظ التشبيه فى البيت الأول والاستعارة فى البيت الثانى ، وخطاب غير العاقل والأمر المجازى فى البيت الأخير .

ومن ذلك أيضا قول زهير بن أبى سلمى :

من يلق يوما على علاته هرما يلق السماحة منه والندى خلقا

---

(٢) تاريخ آداب العرب للرافعى ٢/٧ .

وفيه تتميم •• ومن ذلك قول المرقش الأكبر :

انا لنرخص يـــوم الروع أنفســـنا
ولو نســـام بها فى الأمن أغلينـــا
شـــعث مقـــارقنا تغلى مراجلنـــا
نأســـو بأموالنـــا آثار أيدينـــا

فقد صور النفوس تبـــاع وتشترى على ســـبيل الاستعارة المكنية ، وقوله : تغلى مراجلنا كنـــاية عن الكرم • ومثـــل ذلك قول الشـــنفرى :

أديـــم مطـــال الجـــوع حتى أميته
وأضـــرب عنه الذكر صفحا فأذهـــل
وأستف ترب الأرض كيـــلا يرى له
عـــلى من الطـــول امرؤ متطـــول

جعل نفسه يميت الجوع بتصويره بصورة الكائن الحى ، وقوله : « وأضرب عنه الذكر صفحا » كناية عن الاهمال والترك •

ومثله قول الخنساء فى رثاء أخيها صخر :

يؤرقنى التـــذكر حين أمســـى
فأصـــبح قـــد بليت بفـــرط نكس
عـــلى صـــخر وأى فتى كصـــخر
ليـــوم كريهـــة وطعـــان خلس

الأسلوب يفيض بالتحسر والتشبيه الضمنى والاستفهام المجازى • ومثل ذلك قول أمامة بنت الحارث توصى ابنتها عند الزواج : أى بنية•

انك قد فارقت الجـو الذى منه خـرجت ، وخلفت العيش الذى فيـه درجت ، والى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه » .

ومثل ذلك قول العرب فى الأمثال : « ما يوم حليمة بسر » وحليمة هى ابنة الحارث الغسانى من أمراء الغساسنة ، انتصروا على المناذرة ، فلقيت حليمة جند أبيهـا عند عودتهم ، وضمختهم بالطيب ، وذاع هذا وشاع حتى ضرب به المثل .

وليست هذه اشارات خاطفة تدلنا على أن عرب الجاهليـة كانوا يستعملون الأساليب البلاغية ويتذوقونها ، ويفضلون الأساليب المزدانة بها ، دون أن يدركوا السر المكنون فيما وراء عبـاراتهم من جمال أو تأثير ، أو بتعبير أدق : كانوا يتذوقون الأساليب تذوقا بدائيا ، ويحكمون عليهـا بالقوة أو الضعف تجـاوبا مع أحاسيسهم الداخلية وأذواقهم الفطرية .

ومن الثابت فى تاريخ الأدب أن الجاهليين كانت لهم محـاولات بدائية فى النقد « فقد رووا أن النابغة الذبيـانى كانت تضرب له قبة حمراء فى أدم بسوق عكاظ فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارهـا ، فكان أول من أنشـده الأعشى ميمـون بن قيس . أنشـده طويلته التى أولهـا :

ما بكاء الديار بالأطـلال وسؤالى وما ترد سؤالى

فقال له النابغة : أنت أشعر من فى السوق .

قال حازم القرطاجنى : ولقد نقل الرواة من نقدهم الشىء الكثير لكنه مفرق فى الكتب ، ولو تتبعه متتبع متمكن من الكتب الواقع فيهـا لاستخرج منه علما كثيرا موافقا للقوانين التى وضعها البلغـاء فى هذه

الصناعة »(٣) وكأنه يشير الى أن النابغة حين فضل الأعشى على حسان ابن ثابت ، وفضل الخنساء على بنات جنسها ، غضب منه حسان وقال له : بل أنا أشعر منك ومنها ، فقال له النابغة : حيث تقول ماذا ؟ قال : حيث أقـــول :

لنـــا الجفنـــات الغر يلمعن بالضـــحى
وأســـــيافنا يقطرن من نجـــدة دمـــا
ولدنا بنى العنقـــــاء وابنى محـــرق
فأكرم بنا خـــالا وأكرم بنا ابنمـــــا

فقال له النابغة : انك لشاعر ، لولا انك قللت من عدد جفانك ، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك • وفى رواية أخرى : قال له النابغة : انك قلت : الجفنـــات فقللت العدد ، ولو قلت الجفـــان لكان أكثر • وقلت : يلمعن فى اضحى ، ولو قلت : يبرقن بالدجى لكان أبلـــغ فى المديح ، لأن الضيف بالليل أكثر طروا • وقلت : يقطرن من نجـــدة دما ، فدللت على قلة القتـــــل ، ولو قلت : يجرين لكان أكثر لانصباب الدم • وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك ، فقام حسان منكسرا منقطعا »(٤) •

وهذا النقد البلاغى فى المقام الأول ، لأن الخطأ الذى وقع فيـــه حسان ناتج من عدم مراعاته للمقام وما يقتضيه الحال ، حيث اقتصد فى مقام المبالغة ، وقال فى مقام الكثرة ، ولم يراع مقـــام الفخـــر الذى هو فيـــه •

---

(٣) منهاج البلغاء ٢٦ •
(٤) الأغانى ٩/٣٤٠ •

وأكثر من ذلك فقد اتجه نقدهم الى القصيدة بتمامها ، ففى الأغانى أن العرب كانت تعرض أشعارها على قريش فما قبلوه منها كان مقبولا، وما ردوه منهـــا كان مردودا ، فقدم عليهم علقمة بن عبـــدة التميمى فأنشدهم قصيدته :

هل ما علمت وما استوعت مكتوم

فقالوا : هذه سمط الدهر ، ثم عاد اليهم العام المقابل فأنشـــدهم قصـــيدته :

طحابك قلب فى الحسان طروب

فقالوا : هاتان سمطا الدهر • ومن البين الواضح أن الاستحسان منصب على القصيدة بتمامها •

وقالوا فى قصيدة حسان بن ثابت :

لله در عصابة نادمتهم يوما بجلق فى الزمان الأول

انها من خير القصائد ، ودعوها بالبتارة »(٥) •

بل انهم لم يقتصروا فى نقدهم البـــلاغى للشاعر على القصـــيدة الواحدة فقط بل تعدوا ذلك نتـــاج الشاعر كله ، والى الموازنة بـــين شاعرين أو أكثر ، وذلك جرى على يد ربيعة بن حذار الأسدى حـــين قارن بين أربعة من الشعراء فقال :

الزبرقان : شعره كلحم لم ينضج فيؤكل ولا ترك نيئا فينتفع به •

---

(٥) النقد الأدبى لأحمد امين ٤١٧ •

والمخبل السعدى : شعره شهب من الله يلقيها على من يشاء من عباده .
وعبده بن الطيب : شعره كمزاده أحكم حرزها فلم يقطر منها شيء .
وعمرو بن الأهتم : شعره برود يمانية تطوى وتنشر »(٦) .

ومن هذا النقد الذى لم يصلنا الا جزؤه اليسير نعرف سر تفوقهم فى الأدب حيث أقاموا من أذواقهم حارسا على أدبهم ، وبهذا الذوق تخلوه وصفوه من الشوائب وما كان ذلك ليتم لولا ما أوتوه من ذوق بلاغى ومقدرة بيانية » .

ولم تكن وسيلتهم فى تهذيب الذوق وصقل الطبع وتدريب الحس الا حفظ المختار من أدبهم ، وروايته ، فكانت الرواية مدرستهم وجامعتهم التى ينالون حظوظهم الأدبية منها ، كان زهير راوية أوس ابن حجر ، وكان الحطيئة راوية زهير ، وروى عنه كعب أيضا وعن الحطيئة روى جميل .

ومنهم من كان يعمد الى تجويد الشعر ويبالغ فى تنقيحه وتحسينه حتى قال الأصمعى : « ان الحطيئة عبد لشعره »(٧) وكان زهير بن أبى سلمى لا يعرض شعره الا بعد معالجته لمدة عام كامل حتى شهر بأنه حولى . وكان النابغة الذبيانى من هذه المدرسة التجويدية التى تعنى بالحفاظ على المستوى الجيد للشعر ، وتهتم بالنظر فى ألوان البيان وتحرص على مميزات الحسن .

ولا ترضى الا أن يخرج النتاج الأدبى فى أجمل صورة وأقوى بيان .

---

(٦) الموشح ٧٥ .
(٧) العمدة ١/٣٠ .

ويعد ذلك تدريبا على استعمال الأساليب الجيدة ، ومعرفة الوسائل التى بها يجمل العمل الأدبى ، فتظهر جدته ويبين حسنه •

ثم أخذت اللغة العربية تستعد لطفرة بلاغية هائلة أحست أنهـــا وشيكة الوقوع ؛ فقد توقفت لغة قريش على لغات الجزيرة العربية ، وعلا لسانها على كل لسان فيها ؛ حتى صـــار لسان الشعراء والخطباء والمتناظرين •

وبجانب ذلك جدت أحداث عظيمة حيث كثرت رحلات العرب صيفا الى بلادالشام ، وشتاء الى بلاد اليمن ، ومن شأن هـــذا أن تتنـــوع المشاهدات وتتخصب الأفكار ، وتزداد الخبرات لدى العرب •

وبجانب ذلك تسربت لمحات من ديانات اليهود والنصارى الى تلك البقاع •• والحاصل من وراء ذلك كله أن الشـــعراء والخطبـــاء كانوا يجوبون الأسواق الأدبية ، يترجمون الأحداث ، ويكشفون الوجدان ، ويصورون المجتمع ، ويسجلون على صفحة الأدب ما كان يجـــرى على مسرح الحياة •

وفى هذه الأحداث جاء الاسلام فانسابت أضواء البيان القرآنى على الجزيرة العربية ، فكان لها فى نفوس العرب وفى أســـماعهم وفى قلوبهم ما أثار كوامنهم ، وحرك اعجابهم ، فهبوا يغترفون من منهله العذب ، وجعلوا يضـــمنون أســـاليبهم من ألفاظه ومعانيه ، حتى رقت ألفاظهم ، وشفت معـــانيهم ، ولانت عواطفهم ؛ رسمت خيـــالاتهم ، وشرفت أغراضهم » •

ولقد دفع القـــرآن الكريم اللغة وطورها ، ووسع الفكر ومد فى آفاقه ، وأدخل على الأساليب الجديد من الألفـــاظ والمعانى ، وعقـــد على المجتمع الجديد هالة من الصفاء والنقاء •

وسار فى خط مواز لذلك تجـويد الأدب وتحسـينه ، حيث كان المسلمون يناصرون الاسلام ، ويناظرون المشركين ، ويدحضون الحجة فتصدى لهم من المسلمين خطيب وشاعر ، فلم يسعهم الا أن أسـلموا قائلين : ان هذا الرجل لمؤتى له ، وان خطيبه أبلغ من خطيبنا ، وان شاعره أبلغ من شاعرنا » .

قال ابن هشام : قدمت عـلى رسول الله صلى الله عليـه وسلم وفود العرب ، فقدم عليه عطارد بن حـاجب بن زرارة فى أشراف بنى تميم : منهم الأقرع بن حابس والزبرقان بن بدر وعمـرو بن الأهتم ، ونعيم بن يزيد ، وقيس بن الحرث ، وقيس بن عاصم ، ومعهم عيينة ابن حصن .

وكان الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن شهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة وحنينا والطائف ، فلما قدم وفد تميم كـانا معهم . فلما دخلوا المسجد نادوا على رسول الله صلى الله عليه وسـلم من وراء حجراته : أن أخرج الينا يا محمد . فآذى ذلك رسـول الله صلى الله عليه وسلم من صياحهم ، فخرج اليهم فقالوا : يا محمـد ، جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا . قال قد أذنت لخطيبكم فليقل . فقام عطارد بن حاجب فقال : الحمد لله الذى له علينا الفضـل والمن ، وهو أهله ، الذى جعلنا ملوكا ، ووهب لنـا أموالا عظاما نفعل فيهـا المعروف ، وجعلنا أعز أهل المشرق ، واكثره عددا ، وايسره عدة فمن مثلنا فى الناس ؟ ألسنا برؤوس الناس وأولى فضلهم ؟ فمن فاخرنـا فليعدد مثل ما عددنا » ... الخ .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لثابت بن قيس بن الشماس : قم ، فأجب الرجل فى خطبته ، فقـام ثابت فقـال : الحمد لله الذى السموات والأرض خلقه ، قضى فيهن أمـره ، ووسع كرسيه علمه ولم

يك شيء قط الا من فضـــله ، ثم كان من قـــدرته أن جعلنـــا ملوكا ، واصطفى من خير خلقه رسولا : أكرمهم نسبا ، وأصدقهم حديثـــا ، وأفضلهم حسبا ، فأنزل عليه كتابه ، وائتمنه على خلقه ، فكان خـــيرة الله من العـــالمين ثم دعا النـــاس الى الايمـــان به فآمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوى رحمه ، أكرم الناس حسبا ، وأحسن الناس وجوها ، وخير الناس فعـــالا ، ثم كان أول الخلق اجـــابة واستجاب لله حين دعاه رسول الله نحن ، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله» الخ •

ثم قام الزبرقان بن بدر فقال قصيدته التى منها :

نحن الكـــــرام فلا حى يعـــــادلنا
منـــا الملـــوك وفينا تنصب البيـــــع
وكـــم قسَـــــرنا من احيـــــاء كلهم
عنـــــد النهاب وفضل العز يتبـــــع

فلما فرغ الزبرقان قال رســـول الله صلى الله عليه وســـلم : قم يا حسان فأجب الرجل فيما قال • فقام حسان فقال :

ان الذوائب من فهـــــر واخوانهم
قـــــد بينـــــوا سنة للناس تتبـــع
قـــوم اذا حـــــاربوا عـــــدوهم
أو حاولوا النفـــع فى أشياعهم نفعـــوا
يرضى بهـــا كل من كانت ســـــريرته
تقـــــوى الاله وكل الخـــير يصطنع

قال ابن هشام : حدثنى بعض أهل العلم بالشعر من بنى تميم أن الزبرقان بن بـــدر لما قدم رسول الله صلى الله عليـــه وسلم فى وفـــد بنى تميم فقال :

أتينـــاك كيما يعلم الناس فضـــلنا
اذا اختلفـــوا عند احتضار المواســـم
بأنا فـــــروع النـــــاس فى كل موطن
وأن ليس فى أرض الحجـــــاز كـــدارم

الى آخر ما قال • فقام حسان بن ثابت فأجابه فقال :

هـــــل المجد الا السؤدد القود والندى
وجـــــاه الملوك واحتمال العظـــائم
نصـــــرنا وآوينا النبى محمـــــدا
عـــــلى أنف راض من معـــد وراغم

الى آخر ما قال • فلما فرغ حســـان بن ثابت من قـــوله قال الأقرع بن حابس : ان هذا الرجل لمؤتى له ، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا ، فلما فرغ القوم أسلموا وجوزهم رســـول الله صـــــلى الله عليـــه وسلم فأحسن جوائزهم »(٨) •

وكان هذا وأمثاله مما يجرى على الساحة العربية سببا مباشرا فى أن يفكر المتناظرون فى طريقة المقابلة بين الاساليب ، والنظر فى ألوان البيان ، ومميزات الحسن والقبح فى الأداء ، وبعد ذلك تدريبا عمليـــا ، واثارة علمية للأدب ووجوه تحسينه من فصـــــاحة لفظ وبلاغة معنى واصابة غرض •

ومن العجب أن القرآن الكريم تحدث عن البيان وأثره فيما حكاه عن سيدنا موسى عليه السلام فى قوله تعالى : « واحلل عقدة من لسانى

---

(٨) سيرة ابن هشام ٤/٢٢٣ ـ ٢٣٢ •

يفقهـوا قولى »(٩) ، وفى قوله تعالى : « وأخى هرون هو أفصـح منى لسانا فأرسله معى ردءا يصـدقنى »(١٠) ، وفى قوله تعالى : « فعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا »(١١) ، وفيما امتنه الله على عبـاده من نعمة البيان فى قوله : «الرحمن علم القرآن خلق الانسـان علمـه البيان »(١٢) .

وقد كان للرسـول صلى الله عليه وسلم منهـج خاص فى القـول والأسلوب ، كان أسلوبه أفصح الأساليب بما حواه من الأمثال السائرة ، والعبارات المتكررة ، والمجازات البليغية ، والاشارات الموجزة ، وبجانب ذلك فقد كان يشجع الشعراء والخطباء ، فقد قرب حسـان بن ثابت ، وأهداه ضيعة وجارية ، وخلع عليه برده ، وقال له لما هيج الغطاريف على بنى عبد مناف : والله لشعرك عليهم أشد من وقع السهام فى غبش الظلام » وقال للنابغة الجعدى : لا يفضض الله فاك » وقال لهيذان بن شيخ : رب خطيب من عبس ، كمـا روى عنه قوله : أن امرأ القيس بيده لواء الشعر .

وفى ذلك يقول الجاحظ : انه لم ينطق الا عن ميراث حكمـه ، ولم يتكلم الا بكلام قد حف بالعصمة »(١٣) .

وقد تأثر الصحابة برسول الله صلى الله عليه وسلم فى اختيـار الألفاظ والمعانى ، واستعمال التراكيب البليغة المؤثرة ، وقد كانت لهم

---

(٩) سورة طه ٢٨ .
(١٠) سورة القصص ٣٤ .
(١١) سورة الساء ٦٣ .
(١٢) سورة الرحمن ٢ .
(١٣) البيان والتبين ١٧/٢ .

لمع نقدية ذوقية رائعة ، منها ماروى عن أبى بكر الصديق — رضى الله عنه — أنه عرض لرجل معه ثوب فقال له : أتبع الثوب ؟ فأجاب الرجل : لا .. عافاك الله » فتأذى الصديق مما يوهمه وصل الكلام وظاهر اللفظ من أن النفى مسلط على الدعاء ، فقال له الصديق رضى الله عنه : قل : لا وعافاك الله وذلك لتكون الواو حاجزا بين (لا) النافية ، وما بعدها من تمام الجملة ، فلا يختلط معناهما ، وهذه الواو هى التى قال عنها البلاغيون فيما بعد : انها أجمل من الحلى على صدور النساء .

ومن اللمع النقدية الرائعة لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما يرويه قدامة بن جعفر فى كتابه (نقد الشعر) أنه قال فى مدح زهير بن أبى سلمى : انه كان لا يتبع حوشى الكلام ، وكان لا يعاظل بين الكلام ، ولا يمدح الرجل الا بما هو فيه » ومن الصحابة الذين لهم باع طويل فى استعمال الأساليب الجيدة والاحساس بما فى الكلام من رونق وبهاء مع القدرة على النقد والتوجيه الامام على كرم الله وجهه ، وابن عباس رضى الله عنهما .

وقد اتسعت الحياة العربية فى ظلال الاسلام أفقيا ورأسيا ، وانطلق العرب من جزيرتهم الى بقاع الأرض ، وكأنهم جاءوا أقطار الأرض ليصلوا بها آفاق السماء ، وفى ظلال الأحداث الاسلامية الكبرى اتسعت مجالات الأدب وتعددت أغراضه ، وتباورت الملحوظات النقدية فيه بتأثير من بلاغة القرآن الذى كان ملء الأسماع والأبصار ، وبلاغة النبى صلى الله عليه وسلم الذى كان ملء الصدور والقلوب .

وفى عصر بنى أمية ازدهرت البلاغة الذوقية ، وتناول الأدب كثيرا من أساليبها ، وفرض النقد نفسه على ساحة الأدب .

أنشد عبد الله بن الرقيات قصيدته أمام عبد الملك بن مروان فقال :

يأتلق التـــاج فوق مفـــرقه عـــلى جبين كأنه الذهب

فقال له عبد الملك : قد قلت فى مصعب بن الزبير
انما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء

فأعطيته المدح بكشف وجلاء الظـــلم ، وأعطيتنى من المدح مالا فخـــــر فيـــه ، وهو أعتدال التـــــاج فوق جبينى الذى هو كالذهب فى النضارة »(١٤) .

ولعل من الطريف أن نجد فكرة (وحدة السياق) ترد على ألسنتهم فقد ذكر الرواة أن عمر بن لجأ قال لبعض الشعراء : أنا أشعر منك.قال: فبم ذاك ؟ قال لأنى أقول البيت وأخـــاه ، وأنت تقـــــول البيت وابن عمه »(١٥) .

وقد تضافرت عوامل عديدة على دفع الدراسات القرآنية والبحوث العربية ، وهى عوامل دينية وحضارية وفكرية وعلمية شاعت منذ صدر الاسلام وتدرجت شيئا فشيئا الى العهدين الأموى والعباسى كان من شأنها أن تضفى على الأدب العربى رونقا وبهاء ، وكان من شأنها أيضا أن افسحت للقرآن مجالا هائلا من البحوث والدراســـات هى فى الواقع كالمطر لبذرة البلاغة المتوثبة للظهور .

تحـــركت هذه العوامل بما جد فى البيئة العربيـــة من اتســـــاع وشمول ، حتى احتوت أقاليم واسعة فى بلاد فارس وما وراء النهرين فى آسيا وفى افريقيا غربا وشرقا وشمالا وجنوبا ، وفى أوربا حتى قاربت

---

(١٤) الصناعتين ٩٨ .
(١٥) البلاغة تطور وتاريخ د شوقى ضيف ص١٨ .

مشارف ايطاليا وأوشكت على دخول فرنسا من جهة أسبانيا — وقد اقتضى ذلك أن تسع اللغة العربية هذه الأماكن ، وأن تفسح صدورها للثقافة والعلم والفن فيها ، وما هو الا قليل حتى استعرب أهل هذه البلاد وصاروا يتكلمون العربية تعليما بعد أن كان العرب يتكلمونها سليقة وطبعا .

يقول ابن الاثير: لما فتحت الأمصار ، وخالط العرب غير جنسهم ، ونشأ بينهم الأولاد ، فتعلموا من اللسان العربى ما لابد لهم من الخطاب وتركوا ما عداه ، وتمادت الأيام الى أن انقرض عصر الصحابة ، وجاء التابعون وسلكوا سبيلهم ، فما انقضى زمانهم الا واللسان العربى قد استحال أعجميا »(١٦) . وليس ظهور اللحن أمرا هينا لدى قوم يخافون على كتابهم المقدس الذى لا يترصلون الى فهمه الا عن طريق اللغة السليمة ، فضلا عن أن اللحن يهدد البيان أيضا — وهو أوسع النوافذ الى القرآن الكريم — وهذا أحد الأسباب القوية فى استعجال البحث والتأليف فى العلوم العربية والاسلامية التى هى المدد والزاد للبلاغة .

ثم كان لابد من التفاعل والتأثر والتأثير بين اللغة العربية ولغات هذه الاقاليم وثقافاتهم ، وكان القرآن وتعاليم الاسلام هما المصدر الأساسى لهذا التفاعل والاقتراب أو التباعد عن الثقافات الفارسية والهندية والرومية وغيرها . ونتج عن ذلك أن تسلل كثير من العجم الى الدين واحتموا فيه ، وأشاعوا أخلاق أقوامهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وعاداتهم وتقاليدهم ، كما فتحوا على المسلمين أبواب الجدل العقيم

---

(١٦) النهاية ١/٤٢٣ .

والتشكيك المتعمد ، فظهرت طائفة من الزنادقة والملحدين والمفترين على القرآن والطاعنين فى الاسلام •

وفى هذه الفترة زادت حركة البحث والتأليف والرد على التهافت ، وكان ذلك سببا فى نشأة كثير من العلوم العربية والاسلامية التى حملت بين مسائلها نتفـــا من علوم البلاغة هيأتها ظروف النهضـــة للنمو والظهور »(١٧) •

ويمكننا أن نقرر أن البلاغة مرت فى حياتها العملية والنظرية بأطوار متعاقبة تشكلت خلالها ، وظهرت مسائلها ونمت فروعها حتى صـــارت علما قائما بذاته له خصائصه ومميزاته على النحو التالى :

الطور الأول :

يتمثل فى استعمال الأساليب البلاغية استعمالا قائمـــا عـــلى الاحساس بما فيها من مجال مبنيا على الذوق ، نابعـــا من السليقة اللغوية عند العرب ، وقد خلا هذا الطور من البحث فى مسائل البلاغة أو التأليف فيها ، وان بدت فيه بوادر النقد والحكم على الأســـاليب بالحسن أو القبيح • ويمتد هذا الطور من الزمن الغابر مرورا بالعصرين الاسلامى والأموى •

الطور الثانى :

ويشمل هذا الطور أجزاء من العصرين الأموى والعبـــاسى كانت فيه البلاغة مسائل منثورة بين ثنايا العلوم الأخرى ، وكان الحـــديث عنها يجرى عرضا فى كتب التفسير والأدب أو من خـــلال المســـائل النقدية وغيرها •

---

(١٧) يراجع فجر الاسلام لأحمد أمين ٣٩ •

ومازال الذوق الأدبى والحس البلاغى هما عدة البلاغة فى هذا العصر ، ومع هذا نلمح فيهما تطورا يوازى تطور الحياة العقلية والحضارية ، ويواكب النهضة التى كان العرب قد صاروا على أبوابها .

وفى هذا المطور ظهرت علوم العربية ، ودونت مسائل اللغة والأحكام الشرعية تدوينا بدت فيه العلوم متداخلة متصلة ، ثم حاول كل علم أن يختص بحدوده ومسائله وأبحاثه وموضوعاته شيئا فشيئا ، من مظاهر ذلك ما رواه الجاحظ فى كتابه (البيان والتبيين) من أن ثمامة بن أشرس سأل جعفر بن يحيى البرمكى الوزير الأديب : ما البيان ؟ فأجابه بقوله : هو أن يكون الاسم يحيط بمعناك ويجلى عن مغزاك ، وتخرجه عن الشركة ، ولا تستعين عليه بطول الفكرة . والذى لابد فيه أن يكون سليما من التكلف ، بعيدا عن الصنعة ، بريئا من التعقيد ، غنيا عن التأويل »(١٨) .

ويمثل هذا مسار التاريخ بالبلاغة وبحوثها شيئا فشيئا نحو التقعيد والتحديد ، ومازال بها حتى أصبحت مسائل مستقلة ، وقضايا قائمة بذاتها فى درج كتب اللغة والأدب والتفسير .

وفى (الكتاب) لسيبويه كلام عن الفاعل والمفعول والتقديم ، يتحدث فيه حديثا مجملا فيقول : كأنهم يقدمون الذى بيانه أهم لهم وهم بشأنه أعنى ، وان كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم »(١٩) .

وقد ظهرت بيئات مختلفة أسهمت من أول العصر الأموى العباسى فى تسجيل ملاحظات هامة قامت عليها الأبحاث البلاغية ، فقد كان المتكلمون ــ وفى مقدمتهم المعتزلة ــ أنشط هذه البيئات فى بحوث

---

(١٨) البيان والتبيين ١/١٠٦ .
(١٩) الكتاب ١٨ .

البلاغة وفى وضع قواعدها وبسط مباحثها على نحو ما رأينـــا عنـــد الجاحظ ، وقد عنوا عناية خاصة بتعليل اعجاز القرآن وتفسيره بلاغيا ، ثم شغلت نظرية الاعجاز بيئة الفقهاء والمحدثين ، فهذا أحمد بن محمد الخطابى المتوفى ٣٨٨هـ يكتب رسالة فى اعجاز القرآن يرد فيها على من يقولون بفكرة الصرفة ، وهى أصلا فكرة النظام أســتاذ الجاحظ ، ثم يرد اعجاز القرآن الى بلاغته العالية .

وكان للغويين نشاطهم الذى يتصل بالكشف عن فقه اللغة ومعرفة أسرارها ، وقد نتج عن أبحاثهم مسائل بلاغية كثيرة ، كمـــا رأينا عنـــد ابن فارس م ٣٩٥هـ فى كتابه (الصاحبى) حيث وضع فيه فصلا أسماه (معانى القرآن) وقد جعلها عشرة : الخبر والاستخبار ، والأمر والنهى ، والدعاء والطلب والعرض والتحضيض ، والتمنى والتعجب ، وأشـــار الى خروج هذه الأنواع الى معان عارضة .

وكانت بيئة الفلاسفة والكتاب والمتأدبين عاملا هاما فى تطور النثر والشعر ، وكان للاحتكاك والخصومات والمحاورات فيما بينهم أثر كبير فى رواج النشاط البلاغى .

ويمثل المتأدبين الشريف الرضى م ٤٠٦هـ فى كتابه (تلخيص البيان فى مجازات القرآن والمجازات النبوية) وكذلك أبو هلال العســـكرى م ٣٩٥ فى كتابه (الصناعتين) وابن رشيق م ٤٦٣هـ فى كتـــابه (سر الفصاحة) ويحيى العلوى فى كتابه (الطراز) .

وهذا التطور هو عصر التوهج الفكرى عند العرب ، وفيه ظهـــر التراث البلاغى مثل (مجاز القرآن) لأبى عبيدة ، و (البيان والتبيين) للجاحظ ، و (تأويل مشكل القرآن) لابن قتيبة ، وغير ذلك من أمهـــات البلاغة وأصولها .

الطور الثالث :

وهو طور التدين المستقل والصياغة العلميـــة الدقيقة والترتيب المنظم والتقعيد المحدد ، ويمتد هذا الطور ويتداخل مع الطور السابق الى العصر الحديث ، وفيه أخذت البلاغة تلبس شكلها المعروف ، وتتجه نحو العلم النظرى المستقل بمصطلحاته وتعريفاته وقضاياه • وفيـــه ظهرت كتب البلاغة ابتداء من (دلائل الاعجاز) و (أسرار البـــلاغة) للامام عبد القاهر الجرجانى الى (مفتاح العلوم) للســـكاكى ، الى الشروح والحواشى والتعليقات •

ويعد الفخر الرازى فى كتابه (دراية الاعجاز) أول من هيأ لاتجاه التلخيص والشروح البلاغيـــة ، فقد جمع بعض فنون البديع وأضـــاف على ملخصه من الفلسفة والمنطق والـــكلام ، كمـــا يعـــد الخطيب القـــزوينى أول من أكثر فى ذلك وزاد ، وممن ســـار فى هذا الاتجـــاه السبكى فى كتابه (عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتـــاح) وكذلك صنع سعد الدين التفتازانى ، حيث شرح التلخيص شرحين : أحدهمـــا (المطول) والثانى (المختصر) •

وهذه الشروح لم تستطع أن تضيف الى مباحث علوم البلاغة شيئا جديدا ، ولم تكن أكثر من أغصان ظلت تتسلق على شجرة البلاغة ولكن بغير ثمار أو فائدة تذكر •

وفى العصر الحديث نتطلع الى نهضة بلاغية ، تنبع من العصـــور الزاهية للبلاغة ، وتستمد روافدها مما استحدثه العصر الحـــديث من معان وأفكار ، وذلك كله فى اطار بلاغة القرآن الكريم ، بحيث تسرى أصالة القديم فى أوصـــال العهـــد الجـــديد ، ولذلك حديث آخـــر ان شاء الله تعالى •

المصـــادر والمراجع

١ ــ الاتقان فى علوم القرآن ــ السيوطى ــ

٢ ــ أثر القرآن فى تطور النقد د/محمد زغلول سلا م ــ دار المعارف

٣ ــ أثر النحاة فى البحث البلاغى د/عبد القادر حسين ــ دار المعارف

٤ ــ أسرار البلاغة ــ عبد القاهر الجرجانى ــ الاستقامة

٥ ــ الأسس الجمالية فى النقد العربى ــ د/عز الدين اسماعيل ــ دار الفكر العربى

٦ ــ الاعجاز البلاغى ــ د/محمد أبو موسى ــ وهبه

٧ ــ اعجاز القرآن ــ الباقلانى ــ د/محمد عبد المنعم خفاجى ــ صبيح

٨ ــ البلاغة تطور وتاريخ ــ د/شوقى ضيف ــ دار المعارف

٩ ــ البلاغة العربية أصلها وأصولها ــ د/السيد خليل ــ دار النهضة

١٠ ــ البلاغة عند السكاكى ــ د/أحمد مطلوب ــ بغداد

١١ ــ البيان والتبيين الجاحظ ــ عبد السلام هارون ــ مصطفى البابى

١٢ ــ تأويل مشكل القرآن ــ ابن قتيبة ــ عيسى البابى

١٣ ــ تلخيص المفتاح ــ الخطيب القزوينى ــ العثمانية

١٤ ــ الحيوان ــ الجاحظ ــ مصطفى البابى

١٥ ــ دلائل الاعجاز ــ عبد القاهر الجرجانى ــ المنار

١٦ ــ شروح التلخيص ــ القزوينى وغيره ــ عيسى البابى

١٧ ــ الصناعتين ــ العسكرى ــ عيسى البابى

١٨ ــ العمدة ــ ابن رشيق ــ السعادة

١٩ ـ القرآن الكريم وأثره فى الدراسات النحوية ـ عبد العال مكرم ـ دار المعارف

٢٠ ـ الكتاب ـ سيبويه ـ ـ الأميرية

٢١ ـ الكشاف ـ الزمخشرى ـ الاستقامة

٢٢ ـ مجاز القرآن ـ أبو عبيدة ـ الخانجى

٢٣ ـ المفتاح ـ السكاكى ـ مصطفى البابى

٢٤ ـ مقدمة تلخيص البيان ـ محمد عبد الغنى حسن ـ عيسى البابى

٢٥ ـ النكت فى اعجاز القرآن ـ الرمانى ـ دار المعارف

د/حسن منيمر